



OPEN ACCESS

تاريخ الاستلام: 2025-11-10

تاريخ القبول: 2026-3-14

قضايا الجدل الديني واتجاهاته في تونس (1875-1931).

مراجعة لكتاب الجدل الديني في تونس وتزام الأضداد (1875-1931) لفتحي القاسمي

عبد الباسط الغابري<sup>(1)</sup>

[ghabri\\_abdelbaset@yahoo.fr](mailto:ghabri_abdelbaset@yahoo.fr)

### ملخص:

بقدر ما استحوذ تركيز الباحثين على دراسة الجدل الديني والحضاري في المشرق من خلال تواتر استحضار أعلام مشهورين أمثال محمد عبده وفرح أنطون وشبلي شميل وغيرهم، فإنَّ دراسة الجدل ببقية العالم الإسلامي ظلَّ محتشماً. ويعدّ في هذا الصدد الكتاب الصادر حديثاً حول الجدل الديني بتونس للأستاذ المتميّز فتحي القاسمي عملاً نوعياً لا يقتصر رهانه على التعريف برجال فكر منسيين، وإنّما كذلك في مراجعة بعض المسلّمات الخاطئة، والإسهام في إعادة بناء المعرفة التاريخية والحضارية بالعالم العربي، على أمل توفير شروط تشكّل مدرسة جدالية ترسخ ميثاق حضاري خصب للحجاج والمناظرة. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أنّ كتاب القاسمي في أصله أطروحة دكتورا دولة نوقشت سنة 2007 بكلية الآداب والإنسانيات بمنوبة. وقد كانت مناقشة حيّة لم تخل من نقاش بناء وجدال ثمر بين الباحث وأعضاء لجنة المناقشة..

### الكلمات المفتاحية:

الجدل، تونس، مدرسة، الحداد، الحجاج، الاختلاف.

(1) باحث، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، تونس.

للاقتباس: الغابري، عبد الباسط، قضايا الجدل الديني واتجاهاته في تونس (1875-1931). مراجعة لكتاب الجدل الديني في تونس وتزام الأضداد (1875-1931) لفتحي القاسمي، مجلة نماء، مركز نماء، مصر، مج 10، ع 2، 2026، 146-159.

© نُشر هذا البحث بموجب ترخيص (CC BY-NC4.0) المفتوح، الذي يسمح لأي شخص بتنزيل البحث وقراءته والتصرف به مجاناً، مع ضرورة نسبته إلى صاحبه بطريقة مناسبة، مع بيان ما إذا أُجريت عليه أي تعديلات، ولا يجوز استخدام هذا البحث لأغراض تجارية.

## OPEN ACCESS

Received: 2025-11-10

Accepted: 2026-3-14



## Issues and Trends of Religious Controversy in Tunisia (1875–1931): A Review of Fathi Al-Qasimi's book *Religious Debate in Tunisia and the Clash of Opposites* (1875–1931)

Abdulbasid Al-Ghabri<sup>(2)</sup>[ghabri\\_abdelbaset@yahoo.fr](mailto:ghabri_abdelbaset@yahoo.fr)

### Abstract:

This study situates Fathi al-Qasimi's recent book on religious polemics in Tunisia as a landmark contribution to a field long dominated by research on the Mashriq and its well-known figures such as Muhammad Abduh, Farah Antun, and Shibli Shumayyil. Its importance lies not only in recovering overlooked intellectuals but also in challenging entrenched assumptions and enriching the reconstruction of Arab historical and civilizational knowledge. By doing so, al-Qasimi's work aspires to lay the groundwork for a polemical school of thought capable of fostering a robust civilizational framework for debate and argumentation. Originating as a doctoral dissertation defended in 2007 at the Faculty of Arts and Humanities in Manouba, the book reflects the lively intellectual exchange that characterized its defense, underscoring its scholarly depth and the constructive dialogue that shaped its final form.

### Keywords:

Controversy, Tunisia, School, Al-Haddad, Argumentation, Disagreement.

(2) Center for Islamic Studies in Kairouan.

**Cite this article as:** Al-Ghabri, Abdulbasid, Issues and Trends of Religious Controversy in Tunisia (1875–1931): A Review of Fathi Al-Qasimi's Book *Religious Debate in Tunisia and the Clash of Opposites* (1875–1931), *Journal of Namaa*, Nama Center, Egypt, V 10, issue 2, 2026, 146-159.

© This research is published under an open license (CC BY-NC 4.0), which allows anyone to download, read, and use the research for free, provided it is properly acknowledged, indicating if any modification has been made to it. This research shall not be used for commercial purposes.

## مقدّمة:

لئن عرفت الحضارة الإسلامية أشكلاً مختلفة من آداب الجدل والمناظرة في عهد ازدهارها الثقافي مثلما تشهد بذلك ليالي التوحيد المتعة، ومناظرات أبي هذيل العلاف، وابن حزم الظاهري، وأبي الوليد الباجي، وسعيد بن الحدّاد، فإنّ ذلك الجدل لم يتطوّر إلى علم أو مدرسة لها أنساقها وامتداداتها. إذ على النقيض من ذلك تراجعت ثقافة الاختلاف المبنية على السجال والحجاج بالتزامن مع تكلس الفكر وانغلاق الثقافة في دائرة الركود والجمود. ولم يستفك الفكر العربي من غيبوبته المزمّنة إلاّ في العصر الحديث مع الاصطدام العنيف بالصولة الأوروبية.

ويعدّ كتاب<sup>(3)</sup> «الجدل الديني في تونس وتزاحم الأضداد» الصادر عن المؤسسة المغربية للطباعة والمثاقفة والتوثيق سنة 2024 للباحث التونسي فتحني القاسمي<sup>(4)</sup> مندرجاً ضمن ذلك المشغل الإصلاحية الهادف إلى البحث في العوامل العميقة المعطّلة لتطوّر الفكر الإسلامي من خلال نماذج ممثّلة للفكر التونسي في منعطف تاريخي حاسم يغطّي ما يربو عن نصف قرن (1875-1931). فقد حرص المؤلف في كتابه الذي يمتد على أربع وأربعين وسبعمائة صفحة على رصد تاريخية ظاهرة الجدل الديني في تونس ونوعية المسارات التي سلكتها وأفاقها الممكنة والمستحيلة. ويمكن الاستئناس بمجموعة الفهارس المتضمّنة في أواخر الكتاب لملاحظة حجم الثراء والتنوّع سواء في مستوى نوعية النصوص والوثائق الارشيفية المعتمدة، أو تكاثر أسماء الأعلام أو نوعية المصطلحات المؤثّرة في ضبط جهازه الاصطلاحي والمفاهيمي. تكمن الإشكالية الأساسية في التساؤل إلى أيّ مدى وُفق مؤلّف كتاب «الجدل الديني في تونس وتزاحم الأضداد» في تقديم ظاهرة الجدل الديني بتونس خلال الحقبة الاستعمارية والإحاطة بمدوّنته الفكرية من جهة، وتفسير قصور ذلك الجدل عن بناء مدرسة جدالية تونسية مكتملة الأركان النظرية والعملية من جهة ثانية؟

تتعلّق الفكرة الكبرى في هذا العمل بالنظر في ظاهرة الجدل بصفتها ظاهرة حضارية مركّبة تظافرت مجموعة من العوامل الرمزية والثقافية والمادية في تشكيلها بيئة تونسية لها فرادتها وتميّزها الريادي، لكنّها

(3) لما كان ذلك الكتاب في أصله أطروحة دكتوراة دولة فقد نوقش أمام لجنة علمية ضمّت اللجنة الأستاذ المرحوم كمال عمران مشرفاً والأستاذين المرحومين فتحني الدريسي ومحمد الصالح بن عمر مقرّبين والأستاذ الأزهري الغربي عضواً والأستاذ عبد المجيد البدوي رئيساً.  
(4) أستاذ متميّز في الحضارة الإسلامية. له أكثر من ثلاثين كتاباً في مجال تخصّصه منها العلمانية وانتشارها شرقاً وغرباً وتحقيق لعديد المخطوطات النادرة، فضلاً عن مسيرته الإبداعية بصفته شاعرًا صدرت له بعض الدواوين الشعرية. يغلب على ثقافته التكوين الموسوعي، والاعتدال والعقلانية على رؤيته البحثية ونزعتة الإصلاحية. يمكن أن نذكر من أهم مؤلفاته:

- روابط الفكر والروح بين المصلحين التونسيين ونظرائهم مشرفاً ومغرباً: ثنائية التآثر والتأثير، الشركة التونسية للنشر، تونس، 2013.

- تحقيق الأعمال الكاملة لمحمد الحليوي بالاشتراك مع المنصف الجزار، بيت الحكمة، تونس، 2012.

- الشيخ محمد بيرم الخامس: حياته وفكره الإصلاحية، ط1، بيت الحكمة، تونس، 1990.

لم تدرس بعناية سواء من الباحثين التونسيين أو الباحثين العرب المهتمين بتاريخ الأفكار وتطور الذهنيات والتحوّلات السوسيوثقافية والحضارية. وهو ما يجعل من عملية بناء معرفة تاريخية بالفكر التونسي الحديث والمعاصر رهانا معرفياً وإنسانياً لا يمكن التقليل من قيمته. إذ تستلزم تلك المراجعات إعادة النظر فيما يعرف بـ«التاريخ المنسي»<sup>(5)</sup> الذي تجاهلته أو تناسته الايديولوجيا السائدة والسرديات المرتبطة بها. وقد بدت الرؤية المتحكّمة في توجيه تلك الفكرة الأساسية شاهدة على عمق اطلاع صاحبها وتشبّعه من مختلف الحقول المعرفية والمنهجية المتّصلة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية والدينية. لذا لم تنحصر رؤيته في زاوية واحدة ضمن نظرة أحادية أو إطلاقيه، وإتّما نوع زوايا النظر في تقليب الإشكاليات المطروحة بطريقة تدرّجية استدلالية محكمة بالنسبة والمعقولة النقدية والتاريخية. فطرّح عددًا من الأسئلة الفرعية المتّصلة بمرجعيات الجدل التونسي ومنهجه ومدى تأثيره في تطوّر الخطاب الديني والوعي الفردي والجمعي عموماً، وأسباب التفاوت في الجدل بين مسائل وأخرى، ومميّزات الجدل الديني في تونس من النواحي البنائية والدلالية، وعوامل تعطلّ مسيرة تطوّر الجدل الديني وأفاقه المحتملة في ظلّ مختلف العوامل المعروفة أو المسكوت عنها<sup>(6)</sup>. ويمكن بناء على ذلك صياغة محورين بارزين يختزلان أهمّ ما جاء في أطروحة الجدل الديني في تونس وتزاحم الأضداد: يتعلّق المحور الأوّل بمعنى الجدل وخصوبيته الدينية والحضارية بتونس، وما يستتبع ذلك من مراجعة لعدد من المسلّمات المترسّخة في الذاكرة الجماعية الثقافية العربية. أمّا المحور الثاني فهو عصارة العمل وخلصته. إذ انتهى فيه المؤلّف إلى صياغة تأليفية لما لا يقلّ عن عشر ثنائيات أو ما اصطلح على تسميتهم بـ«الرؤوس العشر» تعكس مدى الوعي التاريخي الذي ساد تلك المرحلة التاريخية التي امتدّت على ما يربو عن نصف قرن من سنة 1875 إلى سنة 1931.

## أولاً: الجدل الديني بتونس وأهمّية مراجعة المسلّمات:

بقدر ما وجدت مادة ضخمة غنية بالنقاش والردود والجدل والمناظرة والمحااجة مبنوثة في تصانيف المتكلمين والفلاسفة وعلماء الأصول والفقهاء مثل أبي الحسن الأشعري (ت 932م) والشيرازي (ت 1083م) وابن الحاجب (ت 1248م) وغير ذلك من فلاسفة اليونان لا سيما أرسطو<sup>(7)</sup>، فإنّ عدم

(5) انظر: علي الصالح مولى: من التاريخ المنسي إلى التاريخ العادل دراسات في تجربة المؤرّخ إبراهيم القادري بوتشيش، مركز ابن غازي للبحوث والدراسات الاستراتيجية، الرباط، 2021.

(6) القاسمي: الجدل الديني في تونس وتزاحم الأضداد (1875-1931)، المؤسسة المغربية للنشر والمثاقفة، 2024، ص 45 (بالتصرف).

(7) م ن، م س، ص ص 35-34.

انتظام الجدل مبحثاً نسقياً<sup>(8)</sup>، وباعتبار أنّ المادة المدروسة في هذا العمل تشمل نماذج من الفكر التونسي جعل مهمة البحث في تحديد معنى الجدل المزمع الانطلاق منه في تأسيس أركان الجدل الديني بتونس واستخلاص أهم خصائصه عملية لا تخلو من صعوبات. فإذا أخذنا بعين الاعتبار الاعتقاد السائد الذي يسلم بأن المرحلة التاريخية المدروسة الممتدة على ما يقارب الست والخمسين سنة (1875-1931) تعدّ مرحلة سبات فكري وركود ثقافي وإذعان وانقياد سياسي بحكم أنّها مثلت ما يقارب الثلثين الأولين من عهد الاستعمار الفرنسي بتونس، فإننا ندرك أنّ تحويل إشكالياتها إلى مشروع فكري فرضيته الأساسية قائمة على الربط بين أثافي ثلاث: الفكر والجدل والثقافة يخرج الجدل من دائرته المعروفة التي تماثله بالحجاج والنقاش والسجال والحوار والمناظرة إلى آفاق فكرية أرحب متصلة بعلو همّة الباحث في تشكّل مدرسة جدالية تونسية رائدة في محيطها العربي والإسلامي. ويمكن من تنظيم نقاشات المجال العمومي في النوازل والأحداث والمستجدات التي يواجهها العالم العربي بما يساعد على ترسيخ قيم الاختلاف والتعددية والمغايرة<sup>(9)</sup> بدل ثقافة الإقصاء والتعصّب والكرهية والتطرّف والعنف. تبدو المرجعية الدينية (خطاب الوحي) النواة الأساسية في هذا العمل سواء بصفتها حقلاً لهذه الدراسة ومنطلقها أو لاضطلاعها بوظيفة العنصر المهيمن الموجّه لتمثّلات الفاعلين التاريخيين والاجتماعيين ووعيمهم. وهم في غالبيتهم شخصيات تاريخية مؤثرة في عصرها بحسب مدى قربها من السلطة القائمة وقيمة رأسمالها الرمزي في النسيج الاجتماعي والثقافي التونسي خلال تلك الحقبة المدروسة.

لئن كان استحضار كلّ المدونات التي انطلق منها القاسمي في دراسته لمسألة الجدل الديني في تونس غير مجدٍ، فإنّه من المهمّ الإلماع إلى تنوعها وثرائها بنائياً ودلاليّاً. فقد رصد تداعيات مواقف الشيخ أحمد بن المهدي -المتّصلة بإمكانية النظر في التشريع الإسلامي دون الحاجة إلى التقيّد بفقهاء المذاهب الأربعة- التي أثار ردوداً صاحبة ضده عبّر عنها شيوخ الزيتونة المحافظين الذين يحرسون السنّة الفكرية والثقافية والذائقة الاجتماعية أمثال الشيخ محمد الشاذلي بن صالح في رسائله. وكذلك المدونة الجدلية<sup>(10)</sup> التي تشكّلت عقب صدور كتاب الطاهر الحداد «امراتنا بين الشريعة والمجتمع». وقد تألّفت من كتاب الشيخ محمد الصالح بن مراد (ت 1979م) المعروف بـ«الحداد على امرأة الحداد»، وكتاب الشيخ محمد البشير النيفر (ت 1974م) موسوم بـ«شمولية الأحكام الشرعية لأوّل الدنيا وآخرها»<sup>(11)</sup>.

(8) راجع تقديم علي الصالح مولى للكتاب، ص 10.

(9) عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف: بحث في نقد المركزية الثقافية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004، ص 58.

(10) فتحي القاسمي: -ثلاثة كتب في الردّ على الطاهر الحداد، دار ابن سراج، تونس، 2014، ص 123.

(11) راجع الفصل الأول والنموذج الثالث تحديداً من الباب الثالث من كتاب القاسمي، مرجع سابق.

وكذلك كتاب الشيخ عمر بن إبراهيم البري المدني المسمى «سيف الحق على من لا يرى الحق»<sup>(12)</sup>. يمكن الإشارة أيضًا ضمن ذلك الجدل الديني والفكري إلى مدوّنتي الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وشيخ الإسلام أحمد بيزم (ت 1937م). فخلال انعقاد مؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين بتونس سنة 1931م برز نقاش وسجال شديدين حول إصلاح التعليم بين رؤيتين متباينتين: رؤية إصلاحية تجديدية سبق للشيخ ابن عاشور أن صاغها في كتابه الشهير «أليس الصبح بقريب» الذي ألفت بين سنتي 1906-1903، ورؤية محافظة تعكس وجهة نظر المؤسسة الرسمية سواء أكانت دينية أم تعاليمية أم مسيحية ثقافية وقتها وكان صوت الشيخ أحمد بيزم الممثل لها مع معاضدة سياسية كبرى من الوزير الأكبر خليل بوحاجب (ت 1942م) نجل الشيخ المصلح سالم بوحاجب (ت 1924م)<sup>(13)</sup>.

تندرج ضمن المدوّنة الجدلية كذلك أطروحتان هامتان صدرتا في نفس تلك الحقبة المدروسة: تتعلّق الأطروحة الأولى بتطوّر الشرع وتطبيقه القضائي بتونس من إعداد البحري قيقة بالجامعة الفرنسية سنة 1930 تحت عنوان *du Chariaa et son application Judiciaire Essai sur L'évolution*<sup>(14)</sup>. أمّا الأطروحة الثانية فهي من إنجاز أحمد السقا حول تنظيم السلطة في الإسلام ومؤسسة الخلافة تحت عنوان أصلي متمثّل في *L'Organisation du pouvoir et de la souveraineté dans le droit public musulman*، حيث عبّر فيها صاحبها عن رؤية نقدية لمؤسسة الخلافة قبل أن يصدر الشيخ الأزهرى علي عبد الرازق (ت 1966م) كتابه الشهير الإسلام وأصول الحكم بثمانى سنوات.

شملت المدوّنة الجدلية التونسية ألوّانًا أخرى سواء على مستوى الشكل (مقالات وأراجيز وفتاوى) أو على مستوى المضامين. فقد أصدر الجنرال حسين سنة 1878 كتابه الشهير «حسم الإلداد في نازلة محمود بن عياد» جادل فيها محمود بن عياد مجادلة دينية وأخلاقية وقانونية ومنطقية باعتباره اختلس أموالًا طائلة من الخزينة التونسية وهرب إلى الخارج باحثًا عن جنسية أوروبية. لكن ما لا يعرفه الكثيرون أنّ بن عياد لم يصمت على تلك الاتّهامات وأصدر كتابًا يردّ فيه على الجنرال حسين ورفاقه المصلحين أمثال خير الدين باشا حيث اتّهمهم بالمسؤولية فيما آلت إليه أوضاع الإيالة من انخرام وسوء المأل بسبب خياراتهم الخاطئة وسوء تقديرهم للأمور<sup>(15)</sup>.

(12) المرجع نفسه.

(13) م ن، ص 23.

(14) راجع الباب الثاني من كتاب الجدل الديني بتونس، م س.

(15) عنوانه الأصلي:

تتجاوز قيمة المدوّنة الضخمة التي نفض عنها الغبار الباحث القاسمي حدود التعريف بأعلام منسيين إلى فتح آفاق إعادة النظر في بعض مسلمات تاريخ الأفكار بالعالم العربي. فالتصوّر الشائع يروّج لريادة مشرقية مطلقة لا لبس فيها إلى حدّ تبدو فيه تونس والمنطقة المغاربية مجرد أصداء للحركة الفكرية والثقافية المصرية واللبنانية تحديداً<sup>(16)</sup>. بينما إعادة قراءة المدوّنة الجدلية بتونس مثلاً يثبت هشاشة ذلك التطور واعتباطيته. فعلى سبيل الذكر ومثلما أشرنا سابقاً سبق أحمد السقا الشيخ علي عبد الرازق بثمانى سنوات فيما يخصّ طبيعة نظام الحكم في الإسلام ومراجعة النظرة المتعالية لمؤسّسة الخلافة. كما دعا أحد الرّواد التونسيين المغبونين توفيق المدني (ت 1983)<sup>(17)</sup> إلى ما يمكن الاصطلاح عليه بـ«فتكنة المجال السياسي»<sup>(18)</sup> من خلال تحجيم سلطة الخليفة لتظلّ سلطة صورية رمزية مع تعيين حكومة مدنية مكلفة بتسيير شؤون الدولة وتنظيم المجتمع. وكذلك فعل محمد الجعايي في مقالاته النقدية لمؤسّسة الخلافة العثمانية ومرجعياته الدينية.

تحيل مسألة مدى وجاهة الحديث عن ريادة مشرقية في بعض القضايا على إشكالية أعمق من الانتصار لفرضية خصوبة الفكر التونسي وحيويته. إذ تشمل إعادة النظر في تاريخ النهضة العربية الحديثة منذ بدايتها. فقد أثبتت بعض البحوث التاريخية الجادّة زيف الادعاء في ربط النهضة العربية بحملة نابليون بونابرت. إذ لم تخل الثقافة الإسلامية من محاولات للاستفاقة والنهوض الحضاري رغم محدودية تأثيرها مثلما يلوح ذلك على سبيل الذكر في إنشاء المطابع بالأستانة منذ وقت مبكر قبل حملة نابليون بعقود أو في بعض الحركات الدينية مثل الوهابية والدهلوية والسنوسية<sup>(19)</sup>. لكن السؤال المطروح في هذا السياق يكمن في أنّه إذا كان الأمر على النحو الذي أشرنا إليه آنفاً في علاقة بأطروحة الجدل الديني وتزامم الأضداد بتونس فما أسباب عدم تطوّر ذلك الجدل إلى مدرسة جدلية متكاملة الأركان وما يعنيه ذلك من تكريس ثقافة المغايرة والاختلاف والتعدّدية والقبول بالرأي الآخر؟

(16) على سبيل الذكر: -ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة (1798-1939)، ترجمة كريم عزقول، دار نوفل، بيروت، 1996.

- علي المحافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1983.

(17) كتب عديد المقالات الصحفية ومن مؤلفاته المنشورة يمكن ذكر:

- المسلمون في جزيرة صقلية وإيطاليا، مكتبة الاستقامة، تونس، 1964.

- محمد عثمان باشا داي الجزائر (1866-1891): سيرته وحرابه وأعماله بنظام الدولة، المكتبة المصرية، الجزائر، (د-ت).

(18) وهو تعبير المؤلّف.

(19) راجع:

-Bechir Tlili, Les rapports culturels et idéologiques entre l'orient et l'occident en Tunisie au XIX ème Siècle (1830-1850), Université de Tunis, 1974, 735p.

## ثانيًا: الثنائيات المعرفية والوعي التاريخي الزائف:

يمكن القول إنَّ عصارة العمل وخلاصته قد اختزلها المؤلف بصيغة تأليفية في عشر ثنائيات أو «رؤوس عشر»<sup>(20)</sup> على حدّ تعبيره. إذ عكست تلك الثنائيات الجامعة مختلف أنماط التعبير وأنظمة التفكير السائدة في المرحلة التاريخية المدروسة أي من موقِّ القرن التاسع عشر إلى الثلث الأوّل من القرن العشرين (1875-1931). وعند الحديث عن الأنظمة الفكرية والأشكال التعبيرية فإنَّ أوّل ما يتبادر إلى الذهن طبيعة الثقافة السائدة ومدارات اتّجاهاتها. تتمثّل تلك الثنائيات في ثنائية الاستيلاء والإغراء التي اختصَّ بها كلّ من يمتلكون سلطة مادية وتنفيذية بصورة خاصّة مثل سلطة الحماية ونظام البايات والمعمرين الفرنسيين بزعامة فيكتور دي كرنيار Victor de Carnière المعروف بنزعته الاستعمارية العنصرية. وقد اشترك جميع هؤلاء الأطراف في تطويع العلماء والأهالي لا سيما الفلاحين أصحاب الأراضي عبر القوة المادية والتشريعات الموضوعية على المقاس مثل النظام العقاري في ضبط الأراضي سنة 1885، وما انبثق عنه من هياكل ومؤسّسات لتعزيزه شأن المجلس المختلط والمحاكم التي لا تقبل استثناءً أو تعقيباً<sup>(21)</sup>. ولعلّ من المفارقات في هذا السياق تورّط بعض «العلماء التونسيين»<sup>(22)</sup> في تأصيل تلك السياسة الاستعمارية أمثال الشيخ محمد السنوسي (ت 1900م) الذي ألّف كتاب «مطلع الدراري في توجيه النظر الشرعي على القانون العقاري»<sup>(23)</sup> رغم ما عرف به السنوسي من رفض لانتصاب الحماية الفرنسية بتونس سنة 1881. ولم تكن حالته في مهادنة الاستعمار فردية معزولة. إذ نجد عديدًا من العناصر التونسية الأخرى مثل الجنرال محمد بن الخوجة<sup>(24)</sup>، بل إنّ بعض العناصر الأخرى قبلت التعاون مع السلطة الاستعمارية عبر التجسّس على الوطنيين المهاجرين والمنفيين مثلما كان صنيع الطاهر خير الدين نجل خير الدين باشا في تخابره مع سلطة الحماية ومدّها بتقارير بخصوص محمد باشا حامية<sup>(25)</sup>. لمّا كانت الهوية التونسية قائمة في ذلك المنعطف التاريخي الحاسم على ثلاثة مكوّنات أساسية متمثّلة في اللغة والدين والتعليم<sup>(26)</sup>، فإنّ النخبة التونسية قد تركّزت أطروحاتها واستندت إلى ذلك

(20) الجدل الديني بتونس، م س، ص 645.

(21) م ن، ص 646.

(22) إذا استعربنا المضمون الذي وضعه أرنولد. هـ قرين للعلماء التونسيين في كتابه الموسوم بـ العلماء التونسيون (1873-1915)،

ترجمة حفناوي عميرية وأسماء معلّى، بيت الحكمة، تونس، 1995، ص 429.

(23) م ن، ص 647. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا الكتاب صدر سنة 1884

(24) له عديد المؤلفات مثل صفحات من تاريخ تونس وتاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.

(25) راجع: القاسمي: الجدل الديني، هامش رقم 2، ص 46.

(26) م ن، ص 49.

المثلث الحضاري. وهو ما يفسّر أنّ النخبة التي نجح الاستعمار في فرض الأمر الواقع عليها اختارت الهجرة الطوعية ليستمر اتجاه الجدل داخليا وخارجيا. وهو ما انبثقت عنه عديد الثنائيات الأخرى منها في هذا السياق ثنائية الفرض والرفض<sup>(27)</sup> وغيرها من الثنائيات الأخرى مثل ثنائية التسامح والتمسح وثنائية التأثر والتأثير وثنائية الابتداع والإبداع وثنائية الاجتهاد والانقياد وثنائية الرحمة والنقمة وثنائية الارتياض والانتفاض وثنائية اللاتينة والعربية وثنائية الحداثة والراثثة.

إذا كان السياق لا يسمح بتفصيل تلك الثنائيات بحكم أنّ الغاية من استحضارها تحديد الأسباب البنيوية العميقة لعدم تطوّر الجدل الديني والفكري التونسي إلى مستوى مدرسة جدالية ممتدة الجذور واضحة المعالم، فإننا سنكتفي بتفصيل أهمّ تلك الثنائيات بما ينسجم مع الرهان المحوري من تقديم كتاب القاسمي. وتعدّ في هذا الصدد ثنائية التأثر والتأثير علامة بارزة في ذلك الجدل الحضاري. إذ تأثر التونسيون بالتطوّر التقني والتكنولوجي الغربي وعظمة الآداب والفنون الفرنسية، فأقبلوا على تعلّم اللغة الفرنسية باعتبارها مدخلاً لاكتساب العلوم الحديثة واستفادوا من الروح النقدية للثقافة الغربية في قراءة واقع المؤسسة التعليمية والدينية. وهو ما كان محلّ إعجاب الشيخ محمد عبده (ت1905) وتنويهه إلى الحدّ الذي تمّ في حدوث ثورة مشابهة بالأزهر أسوة بما حدث بالزيتونة عبر جهود الشيوخ المصلحين مثل الشيخ سالم بوحاجب (ت1924) والشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (ت1973) وغيرهما<sup>(28)</sup>.

تشكّل ثنائيات الابتداع والإبداع والاجتهاد والانقياد والرتابة والراثثة امتداد لثنائية التأثر والتأثير لكن بتفصيل وعمق كبيرين. فقد برز بعض الشيوخ الثائرين على التقليد والراثثة والجمود مثل الشيخ أحمد بن المهدي والشيخ عبد العزيز الثعالبي وغيرهما. فحوصرت دعوتهم واتهموا بإدخال المحدثات والبدع. فكان قدر المصلحين التونسيين مواجهة رثاة مزدوجة ذات اتجاهين داخلي وخارجي<sup>(29)</sup>. يتمثّل الاتجاه الخارجي في الازدواج الذي مارسه سلطة الحماية. فبقدر ما كشف الاستعمار المباشر عن مدى تطوّر فرنسا الثقافي والتقني والاقتصادي، فإنّ غطرسة القوّة والعنف الذي استخدمته في قمع المعارضين وإلجامهم وكنم أصواتهم قد فضح الوجه القبيح لفرنسا الاستعمارية التي كانت تتظاهر برسالتها التمديدية الموهومة لاحتلال البلدان المغلوبة ومحو هويتها الحضارية.

لقد عكست تلك الثنائيات وعياً تاريخياً محدوداً لا ينظر إلى العالم ولا إلى الآخر إلاّ من منظور مزدوج فإمّا أبيض أو أسود. وهو ما يعني أنّ الذهنية السائدة لم تخرج من دائرة البراديفم البطليموسي

(27) م ن، ص 647.

(28) م ن، ص ص 649-650.

(29) م ن، ص 654.

الذي ينتظم ضمن التقسيم اليوناني الشهير للعالم: عالم ما فوق القمر وعالم ما تحت القمر رغم الاحتكاك العنيف والعاصف بالحدثة الغربية والتظاهر بالنفاز إلى روح العصر<sup>(30)</sup>.

وبقدر ما أوضح المؤلف أسباباً نفسية ذهنية متصلة بطبيعة المجادلين التونسيين أعاققت تطوّر الجدل الديني بتونس إلى مدرسة راسخة البنيان والأركان مثل «العناد والمحاكمة»<sup>(31)</sup>، فإنّ لك غير كاف في نظرنا لفهم إخفاق تشكّل خطاب عقلاني تحرّري منبثق عن مدرسة جدلية متكاملة. إذ ممّا لا شكّ فيه أنّ السلطة<sup>(32)</sup> مهما كانت طبيعتها سواء أكانت سلطة رمزية أم مادية يقلقها الجدل وتعدّه مصدر إزعاج ينبغي وأده في المهمل لا سيما في البلدان المتخلفة التي تتمثل مصدر أطماع المتسلّطين داخليا وخارجيا.

بيد أنّ المؤلف نجح في كسب عديد من الرهانات سواء من الناحية التوثيقية حيث نجح القاسمي في جمع مدوّنة جدلية ضخمة متنوّعة مازال بعضها مخطوطا مما يؤكّد سعة اطلاعه وتشبّعه بالموضوع المطروح. وقد بذل في تلك العملية جهودا جبّارة كلّفته تنقلات داخلية وخارجية لملاحقة الوثائق الأرشيفية بالمراكز المختصة والمكتبات العائلية الخاصة بمصر وسوريا وتركيا<sup>(33)</sup> فضلا عن تونس. وقد كشف عن واقع ثقافي مؤلم يخصّ إهمال وثائق نادرة لدرجة أنّ الباحث عثر على بعضها مرمية في محلات بيع الأثاث القديم بعد بيعها بثمن بخس...

بيد أنّ السؤال المطروح إذا تبّينا وجهة نظر المؤلف بخصوص ضرورة توفّر مبادئ العقلانية والاعتراف والاعتدال والإنصاف لتتشكّل مدرسة جدلية تونسية متينة تتصف بالاستمرارية والفعالية، كيف يمكن أن يتولّد جدل وتعدّد أساليب المناظرة والحجاج إذا كان جميع المتحاورين عقلانيين يتحلّون بكل تلك الصفات النموذجية؟

لعلّ الأنسب في هذا المضمار ربط تكلس ظاهرة الجدل وتطوورها بطبيعة المعرفة السائدة وليس بنوعية المتحاورين أو المتجادلين. فقد ازدهرت المناظرات العلمية سواء في الحضارة العربية الإسلامية أو في الحضارة الاغريقية عندما كانت المعرفة يحكمها طابع موسوعي تتقاطع فيه العلوم الصحيحة والتجريبية بالعلوم العقلية والنظرية. ويمكن التذكير بإسهامات ابن رشد الحفيد الطبيب والقاضي والفيلسوف، ولسان الدين ابن الخطيب الطبيب والمؤرّخ والوزير. فقد كان يجمع بينهما التفكير الموسوعي ضمن النظام المعرفي العربي الإسلامي.

(30) انظر:

Thomas Kuhn, Les structures des révolutions scientifiques, Flammarion, Paris, 1983, p128.

(31) القاسمي: الجدل الديني، م ن، ص 645.

(32) راجع: بدير بورديو: الرمز والسلطة، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الرباط، 1992، ص 126.

(33) نوّه في هذا الصدد بالمحامي المرحوم علي الرضا الحسيني ابن شقيق الشيخ محمد الخضر حسين الذي ساعده في جمع عديد الوثائق الهامة. راجع: الجدل الديني...، م ن، ص 33.

## خاتمة:

لقد برهن مؤلف كتاب الجدل الديني بتونس وتزاحم الأضداد على أهمية الخطاب الجدلي في ترسيخ الوعي الإصلاحي بتونس في منعرج حاسم من تاريخها يمتد من الربع الأخير من القرن التاسع عشر وإلى بداية الثلث الأول من القرن العشرين (1875-1931) حيث برزت في تلك الحقبة نخبة إصلاحية أمثال البشير صفر وعبد العزيز الثعالبي وعبد العزيز جاويش، شكّلت امتدادا لجيل رواد النهضة العربية (جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وخير الدين التونسي...). ولئن اعتمد المؤلف منهجاً وصفيّاً تحليليّاً نقدياً قائماً على تقليب أوجه النظر في النصوص سواء كانت وثائق أرشيفية أو مقالات صحفية أو نصوصاً فكرية، فإنّ غزارة المدوّنة البحثية فرضت عليه الانفتاح على حقول معرفية متعدّدة ضمن ما يعرف بالمنهج المركّب أو تفاعل المناهج. وقد خلص المؤلف إلى جملة من النتائج التي يمكن اختزالها في أهميّة الجدل الفكرية والحضارية من ناحية مقاومة التكلّس والجمود، وتفاعل النخب الزيتونية والصادقية التي جمعت بين التكوين الثقافي العربي الإسلامي والروافد الغربية. فتّمّت إثارة قضايا اللغة والهوية والشريعة والاجتهاد والتصوّف والمرأة والحريّة والتعليم والعلمنة والدين بأكثر عمق وفعالية بفضل المنهج الجدلي القائم على التمرّس بأساليب الاستدلال والبرهان والمنطق ومختلف فنون المحاججة والمجادلة. وقد عكس الحراك الجمعياتي والصحفي الحديث ألوّناً من ذلك التطوّر. بيد أنّ أسباباً مركّبة أعاقَت اكتمال التطوّر النظري والعملي للمدرسة الجدلية التونسية والعربية عموماً منها تزايد الإكراهات السياسية الداخلية والخارجية، وتراجع مكانة النخب بفعل التهميش، فضلاً عن انحسار الأفق الفكري لبعض تلك النخب الفاعلة ومحدودية تأثير المؤسّسات الفكرية والثقافية بعد دولتها وانخراطها في الايديولوجيا السائدة. كما نَبّه المؤلف إلى ضرورة تكثيف البحوث وعدم التسرّع في إصدار الأحكام فيما يخصّ تاريخ الأفكار والخارطة الفكرية العربية. ويظلّ الرهان الأهمّ يتمثّل في توصّل القاسمي إلى إثبات أهميّة تأصيل خطاب جدلي أساسه العقلانية والاعتدال والاعتراف بالحقائق مهما كانت مرارتهما لتسهم جميع النخب على اختلاف مشاربها الايديولوجية والثقافية في تحقيق النهوض الحضاري المنشود. أمّا استمرار المغالطات ومحاولات «وأد الحقيقة من أعدائها ومحترفي السياسة»<sup>(34)</sup> فلن يفي إلا إلى مزيد تعميق شروحات الأمة وتمرّقاتها.

## المراجع:

- إبراهيم، عبد الله. (2004). المطابقة والاختلاف: بحث في نقد المركزية الثقافية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- بورديو، بيير. (1992). الرمز والسلطة (ترجمة عبد السلام بنعيد العالي). دار توبقال للنشر.
- حوراني، ألبرت. (1996). الفكر العربي في عصر النهضة (1798-1939) (ترجمة كريم عزقول). دار نوفل.
- بن الخوجة، محمد. (1985). تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد. دار الغرب الإسلامي.
- القاسمي، فتحي. (2024). الجدل الديني في تونس وتزاحم الأضداد (1875-1931). المؤسسة المغاربية للنشر والثقافة.
- القاسمي، فتحي. (2014). ثلاثة كتب في الردّ على الطاهر الحداد. دار ابن سراج.
- القاسمي، فتحي. (2013). روابط الفكر والروح بين المصلحين التونسيين ونظرائهم مشرقاً ومغرباً: ثنائية التأثير والتأثير. الشركة التونسية للنشر.
- القاسمي، فتحي، والجزّار، المنصف. (2012). الأعمال الكاملة لمحمد الحليوي (تحقيق). بيت الحكمة.
- القاسمي، فتحي. (1990). الشيخ محمد بيرم الخامس: حياته وفكره الإصلاحية (ط. 1). بيت الحكمة.
- قرين، أرنولد هـ. (1995). العلماء التونسيون (1873-1915) (ترجمة حفناوي عميرية وأسماء معلّى). بيت الحكمة.
- المحافظة، علي. (1983). الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة. الأهلية للنشر والتوزيع.
- المدني، أحمد توفيق. (1964). المسلمون في جزيرة صقلية وإيطاليا. مكتبة الاستقامة.
- باشا داي الجزائر، محمد عثمان. (د.ت). محمد عثمان باشا داي الجزائر (1866-1891): سيرته وحروبه وأعماله بنظام الدولة. المكتبة المصرية.
- مولي، علي الصالح. (2021). من التاريخ المنسي إلى التاريخ العادل: دراسات في تجربة المؤرخ إبراهيم القادري بوتشيش. مركز ابن غازي للبحوث والدراسات الاستراتيجية.

## References:

- Al-Madani, A. T. (1964). *Al-muslimūn fī jazīrat Ṣiqillīyah wa-Īṭāliyā*. Maktabat al-Istiḳāmah. (in Arabic)
- Al-Muḥāfaẓah, 'A. (1983). *Al-ittijāhāt al-fikriyyah 'inda al-'Arab fī 'aṣr al-naḥḍah*. Al-Ahliyyah lil-Nashr wa-al-Tawzī'. (in Arabic)
- Al-Qāsimī, F. (1990). *Al-Shaykh Muḥammad Bayram al-Khāmis: Ḥayātuhu wa-fikruhu al-*

- işlāhī* (1st ed.). Bayt al-Hikmah. (in Arabic)
- Al-Qāsimī, F. (2013). *Rawābiṭ al-fikr wa-al-rūḥ bayna al-muṣliḥīn al-tūnisīyyīn wa-naẓā'irihim mashriqan wa-maghriban: Thunā'iyat al-ta'aththur wa-al-ta'thir*. Al-Sharikah al-Tūnisīyyah lil-Nashr. (in Arabic)
- Al-Qāsimī, F. (2014). *Thalāthat kutub fī al-radd 'alā al-Ṭāhir al-Ḥaddād*. Dār Ibn Sirāj. (in Arabic)
- Al-Qāsimī, F. (2024). *Al-jadal al-dīnī fī Tūnis wa-tazāḥum al-aḍḍād (1875–1931)*. Al-Mu'asasah al-Maghāribīyyah lil-Nashr wa-al-Muthāqafah. (in Arabic)
- Al-Qāsimī, F., & Al-Jazzār, M. (2012). *Al-a'māl al-kāmilah li-Muḥammad al-Ḥilaywī* (Ed.). Bayt al-Hikmah. (in Arabic)
- Bāshā Dāy al-Jazā'ir, M. 'U. (n.d.). *Muḥammad 'Uthmān Bāshā Dāy al-Jazā'ir (1866–1891): Sīratuhu wa-ḥurūbuhu wa-a'māluhu bi-niẓām al-dawlah*. Al-Maktabah al-Miṣriyyah. (in Arabic)
- Ben al-Khoja, M. (1985). *Tārīkh ma'ālim al-tawḥīd fī al-qadīm wa-al-jadīd*. Dār al-Gharb al-Islāmī. (in Arabic)
- Ben Ayed, M. (1876). *Réplique pour le Général Ben Ayed aux accusations de M. Heussein*. Imprimerie Paul Dupont.
- Bourdieu, P. (1992). *Al-ramz wa-al-sulṭah* (A. Benabdelali, Trans.). Dār Tūbqāl lil-Nashr. (in Arabic)
- Greene, A. H. (1995). *Al-'ulamā' al-tūnisīyyūn (1873–1915)* (H. Ammairiya & A. Mu'allā, Trans.). Bayt al-Hikmah. (in Arabic)
- Hourani, A. (1996). *Al-fikr al-'Arabī fī 'aṣr al-naḥḍah (1798–1939)* (K. Azkoul, Trans.). Dār Nawfal. (in Arabic)
- Ibrahim, A. (2004). *Al-muṭābaqah wa-al-ikhtilāf: Baḥth fī naqd al-markaziyyāt al-thaqāfiyyah*. Al-Mu'asasah al-'Arabiyyah lil-Dirāsāt wa-al-Nashr. (in Arabic)
- Kuhn, T. S. (1983). *Les structures des révolutions scientifiques*. Flammarion.
- Mawlā, 'A. al-Ṣ. (2021). *Min al-tārīkh al-mansī ilā al-tārīkh al-'ādil: Dirāsāt fī tajribat al-mu'arrikh Ibrāhīm al-Qādirī Būṭshish*. Markaz Ibn Ghāzī lil-Buḥūth wa-al-Dirāsāt al-Istrātiyyah. (in Arabic)
- Tlili, B. (1974). *Les rapports culturels et idéologiques entre l'Orient et l'Occident en Tunisie au XIXe siècle (1830–1850)*. Université de Tunis.